حيدر حسين سويري

مجموعة قصصية

في اسطبلات الحمير

في إسطبلاتِ الحميرِ

ثلاثةُ قصَصٍ، تَكشفُ عن ثلاثةِ إتجاهاتٍ، للتَحَكمِ
في سُلوكِ الكائنَ الحيِّ

فِي إسطبلاتِ الحميرِ

ثلاثةُ قَصَصٍ، تَكشفُ عن ثلاثةِ إتجاهاتٍ، للتَحكمِ في سُلوكِ الكائنَ الحيً

مَجموعَةُ قَصَصية

تأليف

حيدر حسين سويري

اسم الكتاب : في اسطبلات الحمير
تـــأليـــف: حيدر حسين سويري
القيــــاس :١٥سم × ٢٣سم
عدد الصفحات:٥٧ صفحة
عدد النسـخ : ٥٠٠ نسخة
الاخـــراج الفني: نهلة نشأت الشمري
سنـــة الطـــبع:١٤٣٨هـ- ٢٠١٧ م
النـــاشـــــر :مؤسسة ثائر العصامي
مـــلاحـــظـــة : كل نسخة لاتحمل توقيع الناشر تعتبر مزورة

مطبعة جعفر العصامي

لايجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب او تخزين مادته بطريقة الاسترجاع ، او نقله على اي نحو او بأي طريقة كانت (الكترونية) او (ميكانيكية) او بالتصوير او بالتسجيل او بخلاف ذلك الا بموافقة كتابية من المؤلف او الناشر.

All rights reserved.Not part of this publication may be reproduced stored in aretrieval system, or transmitted in any former by any means, Electronics, Mechanical photocopying, recording of otherwise .Without prior permission in writing of the Pulisher

مؤسسة
ثائر العصامي
للطباعة والنشر والتوزيع

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٢٧٠ لسنة ٢٠١٧

المَجموعَةُ القَصَصيةُ

" في إسطبلاتِ الحميرِ"

ثلاثةُ قَصَصٍ، تَكشفُ عن ثلاثةِ إتجاهاتٍ، للتَحَكمِ في سُلوكِ الكائنَ الحيِّ

حيدر حسين سويري

المقدمة

قبل البدء بتقديم الكتاب، رأيت أن أتحدث عن بعض الأمور المهمة، التي تُمهد لفلسفةٍ أردت أن أطرحها من خلال هذه المجموعة القصصية، والتي تطرقت لها في كتاب(ماهو الدين؟) في موضوع (العقل والقلب) من خلال بحث قرآني جميل.

سلوك التفكير:

التفكير هو سلوك العقل، وهو يتأثر بعدة عوامل ذاتية وخارجية، ولذلك نرى إختلافاً بائناً بين تفكير عقل وآخر، وكلما تمت السيطرة على تلك العوامل المؤثرة، تمت السيطرة على نوع التفكير، ولذا فمن المعيب نسب تصرف الكائن إلى عقله فقط.

قد يتم السيطرة على دماغ الكائن، لإنتاج تفكير معين، ولكن من غير الممكن السيطرة التامة على تفكير كائن بصورة كاملة، ذلك بأن الدماغ ليس هو فقط المركز للتفكير، بل تشترك معهُ عدة عوامل مادية ونفسية، تؤثر تأثيراً مباشراً على الآلات التي يستخدمها الدماغ، لترجمة التفكير إلى فعل، ومنها ما نراه من تراجع الكائن عن عملٍ كان ينوي فعله، أو التعصب في قضيةٍ ثبتَ للعقل بطلانها.

ناقشتْ الفلسفةُ موضوع العقل الكامل، بمعنى التفكير السليم، وتوصل الفلاسفة إلى وجوبِ وجود شخصٍ يمتلك العقل الكامل، والذي لديهِ جواب لكل سؤال، وحل لكل مشكلة.

تعتقد الأديان، أن الأنبياء والرسل، من ذوي العقل الكامل، وعزوا ذلك لدعم المُرسل(الرب) لهم، ولكني أرى أن في هذا إنتقاص لهم ومنهم، نعم إن الرعاية الإلهية موجودة، وغير منقطعة، ولكن في نفس الوقت كان الرُسل يسيطرون على العوامل الداخلية، من خلال النظام الغذائي، وعلى العوامل الخارجية، بالصبر وقول الحق.

إتجاهات التحكم في السلوك:

كثيرة هي الدراسات التي تحدثت عن السلوك، وأهمها تلك التي تحدثت عن نشأتهِ، والدوافع التي تقف ورائه، وكيفية تقويمها عن طريق التربية، والتنشئة وفق برنامج معين، وإتخذوا بذلك عدة إتجاهات وأساليب، قد أستطيع تقسيمها إلى ثلاث إتجاهات:

أولاً: الإتجاه الوعظي، الذي يقوم على تقديم نصائح وتوجيهات للفرد، وتعليمهِ الخطأ من الصواب، وحثهِ على عمل الصواب، عن طريق الكلام فقط.

ثانياً: الإتجاه المادي الإبتدائي، الذي بنى نظريتهِ التربوية، على أساس وضع آلية لنشاط الفرد، يتعلم من خلالها الصواب من الخطأ، وهو بهذا لا يُعد سوى إمتداد للإتجاه الأول، سوى أنه أضاف إلى الجانب النظري الوعظي، جانباً عملياً تقنياً، ومنهُ ظهرت نظرية المثير والإستجابة، وأن المربي يستطيع التحكم بسلوك الفرد من خلال مثيرات معينة.

ثالثاً: الإتجاه المادي الحديث، الذي جعل من التحكم بالإفرازات الهرمونية، والسيطرة عليها، وسيلته للتحكم بالسلوك، فإنك عندما تكون بحالة معينة مثل الغضب، فستفرز هرمونات خاصة من غدد معينة لتلك الحالة، لذا قامت النظرية على عكس الفعل، أي فيما لو أنه تم التحكم بإفراز تلك الهرموات ماذا يحصل؟

فوجدوا أن الذي يحصل هو الفعل نفسه، الذي يتسبب في إفراز تلك الهرمونات، مما يعني أن هذه الهرمونات، كما أنها كانت نتيجة لذلك الفعل، فإن بإمكانها أن تكون سبباً له.

كذلك إعتمد هذا الإتجاه، على التحكم في خلايا الجهاز العصبي، وتأثيرها على خلايا الدماغ، التي قُسمت كل مجموعة منها، للقيام بوظيفة معينة.

لذا أرى أن السلوك لا يخرج عن بعدين، هما اللذان يقفان وراءه، مع تفاوت السلب والإيجاب في نوعية السلوك، وبالرغم من كون ما أراه، قد قاله وتطرق إليهِ آخرون، إلا أنني قد أكون أراه بشكل آخر:

ثمة صراعٍ داخليٍ كبير، بين إتجاهين قد يتفقان أحياناً، ويتنافران أُخرى، هما الإتجاه العقلي الأناني، ذو التفكير المصلحي المادي الحاضر، والإتجاه العاطفي القلبي، ذو التفكير الجمعي الذي قد يقدم مصلحة الآخر على مصلحته.

يُصدر الإتجاه الأول سلوكاً، بوعيٍ ظاهريٍ مدركٍ(العقل الظاهر)، وأما الثاني فيُصدر سلوكاً بوعيٍ باطنيٍ غير مدركٍ في أغلب الأحيان(العقل الباطن).

إن الإتجاهات الثلاثة المذكورة أعلاه، كُلها تؤثر في الجانبين العقلي والقلبي، على حدٍ سواء، ولذلك فلا يُمكن أن تكون هناك سيطرة تامة، على جميع سلوكيات الفرد، إلا بالجمع بين الإتجاهات كُلها في آنٍ واحد(أعني مكان وزمان محددين)، كما لا يمكن السيطرة على مجموعة أفراد، أن تنهج سلوكاً معيناً، بنفس الدرجة، إلا بضبط إستخدام الإتجاهات الثلاثة، في مكان وزمان محددين.

محتوى الكتاب:

ثلاثةُ قصص تتحدثُ عن ثلاثةِ أمور، مهمة في السلوك، ففي القصة الأولى، تدور الأحداث حول السلوك الناشئ عن التفكير العقلي السليم، يشاركهُ شيئ ضئيل من العاطفة، على خلاف القصة الثانية، التي كانت نشأة السلوك فيها، بشكل عاطفي جداً، إلى درجة فقدان الوعي.

تنتهي القصة الأولى، نهايةً سعيدة، وينال السلوك العقلي السليم، نصيبهُ من التوجه الصحيح والتفكير السليم، على عكس نهاية القصة الثانية، التي كانت نهايتها مأساوية، لأنها سلكت سلوكاً عاطفياً في تعاملها مع الأحداث.

أما القصة الثالثة فجائت لتوازن بين السلوكين، العقلي والعاطفي(القلبي)، بناءً على الأتجاه الثالث للتحكم في السلوك، ولذلك تركتُ نهايتها مفتوحة، ليتسنى للقارئ المضي قُدماً، في رسم النهايةِ التي يرجوها.

أخيراً أتمنى أن يجد القارئ الكريم المتعة، في قراءته وتتبعهِ لأحداث القصص الثلاث، وأن يستفيد من الأفكار المطروحة فيها، كما أتمنى التواصل معكم عبر صفحتي في مواقع التواصل الأجتماعي، لمعرفة الأنطباعات والآراء التي سأستفيد منها بكل التأكيد، في كتابة مواضيع أُخرى..... أسف للإطالة، أترككم مع متعة القراءة...

حيدر حسين سويري

القصةُ الأولى (الحِمارُ الأسودُ)

****

يُحكى ... أنه كان يا ما كان، في قريبِ الزمان، في منطقةٍ لمعاملِ الطابوقِ الأهلية، ذاتَ البوجاتِ الدخانية، الطويلةِ العالية، والتي ما زالت إلى الآن أثارها باقية ... كانت مجموعة من الحمير تعيش في إسطبلٍ قريبٍ من تلك المعامل، التي على عروشها خاوية.....

حيثُ يوفرُ صاحبُ الإسطبلِ الماءَ والغذاءَ والمبيتَ المناسبِ لتلك الحمير، مقابلَ أجرٍ يتقاضاهُ مِنْ أصحابِها، الذين كانوا يأتون كل يومٍ صباحاً، ليجدوا حميرهم مربوطةً إلى عرباتها التي تجرها، ويذهبون بها إلى تلك المعامل، فيقفون في طوابيرٍ طويلةٍ، ويقومون بنقل الطابوق في عرباتهم، التي تجرها تلك الحمير، إلى أماكن البيع (السكلات)، وهكذا دواليك، حتى نهاية العمل، عند حلول المساء، فيأخذ كل واحد منهم أجره، وفق عدد المرات (النقلات)، التي نقل فيها الطابوق .....

كانت مجموعة الحمير هذه، ضخمةً، تتمتعُ بقوةٍ بدنيةٍ عالية، وذات ألوان مختلفة .... وكان من بين تلك الحمير، حمارٌ نحيلٌ، هزيلٌ، أسودُ اللون، قبيحُ المنظرِ، تسخرُ منهُ جميعُ الحمير، وتضحكُ عليه، فلا يأبهُ بكلامها أو سخريتها، ويقول في نفسه: ليس بينهن من هو أحسن مني، أو يُنجزُ عملاً أفضل مني أو أكثر مني..... لكنَّهُ كان يتألم، عندما يسمعُ كلامَ أصحاب تلك الحمير عليه، وسخريتهم منه، أمام صاحبه، الذي لا يرد عليهم، ولا يُدافع عنه .....

في مساء إحدى أيام العمل، حيث نهايته، كان صاحب الحمار الأسود متعباً، يُعاني أعراض البرد (الأنفلونزا) ... فراح يجرُ العربةَ، وساعده حماره على ذلك ... مُتجهَين إلى الإسطبل ... وما أن وصلا هناك، حتى فصل العربة عن الحمار وتركه، دون أن يربطه أو يلاطفه أو يودعه، كعادتهِ في سابق الأيام ... لكنَّ الحمار أخذ مكانه الخاص، وعيناهُ ترقبُ صاحبهُ يُغادر الأسطبل، فبدا عليه الحزنُ بعد التعب ...

" هنيءً لك أيها الحمار الأسود، ستنال أياماً من الراحة، وتغرق في نوم عميق، فلن يوقظك أحد ... يا ليت لنا حظاً مثلك "

هكذا قالت الحمير، التي إعتادت عمل ذلك، حين مرض أصحابها، أو تغيبهم لأحد الأيام ...

لكنَّ الحمار الأسود، قضى ليلته في حزنٍ عميق، يُفكرُ في حالِ صاحبه، كيف يستطيع مساعدته؟ حيث كانت الأجور اليومية، لا تسد سوى قوت يوم واحد، فكيف بصاحبه الذي سيحتاج أيضاً، إلى مصاريف العلاج والدواء!؟ ...

طلع الفجرُ، وإستيقظ الجميعُ، حيث صياح الديك، وأتى صاحب الإسطبل، يربط كل حمار إلى عربته، ويقدم إليهم طعام الإفطار ... فأتى جميع أصحاب الحمير، وإصطحبوهم إلى مكان العمل، إلا صاحب الحمار الأسود، الذي لم يأت ...

إنتظر الحمار الأسود مجئ صاحبه، لكنْ دون جدوى، فقال في نفسه:

" لعله ذهب إلى مكان العمل، ينتظرني أجيئه، فهو متعبٌ، أو قد يكون تأخر في نومه، لشدة تعبه، لأذهب وأنتظره هناك، فإنه إن جاء ورآني هناك، سوف يفرح كثيراً "

خرج الحمار راكضاً، يجر عربته وراء ظهره، متلهفاً لرؤية صاحبه، الذي ظن أنه ينتظره، فوصل إلى مكان العمل، قبل الآخرين كلهم، وقال:

" لأقف في الطابور، فإنَّ صاحبي سيفرح حين يأتي فيجدني أولهم "

جاءت الحمير متململةً، يجرها أصحابها، فرأت الحمار الأسود واقفا في الطابور، نشطاً، متلهفاً للعمل، فأستغربت من ذلك، وقال له الحمار الذي يقف خلفه وهو يتثاءب:

" ماذا تفعل هنا أيها الحمارُ الأسود الغبي؟! ألم نقل لك إن صاحبك لن يأتِ، ألم ترَ أعراض البرد (الأنفلونزا) وقد بدت عليه؟! "

فأجابه الحمار الأسود بهدوء وثقة: " سوف يأتي وسأنتظره "

فتح معمل الطابوق أبوابه، فدخل الحمار الأسود، ليتم تحميله بكمية الطابوق، التي يستطيع حملها، حيث كان صاحبه لا يثقل عليه ... لكنهم هذه المرة، أثقلوا عليه الحمولة عندما لم يروا صاحبهُ معه، فسكت وأسرها في نفسه ... وما أن أتموا حمولته، حتى خرج مسرعا إلى حيث يضع حمولته ... وهو حين مشيهِ، يلتفت يميناً وشمالاً، لعل صاحبه يأتي ...

عاد فوقف في الطابور، فدخل مرة أخرى، ولشدة انهماك العمال بالعمل، لم يلتفت منهم أحد إلى غياب صاحب الحمار، وأن الحمار يأتي لوحده، وكذلك لأنهم ظنوا بأن صاحبه، يوقفه في الطابور ويذهب إلى جهة أخرى ....

هكذا إستمر الحمار الأسود بنشاطه وحيويته، ذهاباً وإياباً، دون أن يشعر بأي تعب، وهو في كلِ نقلةٍ من تلك النقلات، كان يرقب مجئ صاحبه، الذي لم يأت حتى نهاية العمل ...

قفل الحمار الأسود راجعاً إلى الإسطبل ... فصل الحمير أصحابها عن عرباتها ... وبقي الحمار الأسود، حتى جاء صاحب الإسطبل، وإنتقد صاحب الحمار الأسود قائلاً:

" ما أشدَّ قسوة قلب صاحبك!؟ الذي تركك على هذا الحال وذهب! حتى إنه لم يحاسبني! سأراه غداً وأُحاسبه! "

بعد أن تناولوا غذائهم، أخذت الحمير تسخر من الحمار الأسود، وتوبخه، وتقول له:

" إنك غبي بفعلك هذا، ما الذي ستجنيه منه؟! إنك حمار! وستبقى حمار! عملك هو ما يقودك إليه صاحبك، والذي لا تنال منه شيئاً، سوى أكلك وشربك ومنامك، ولو أن أصحابنا تركونا، لوجدنا هذا دون كد أو تعب أو عناء "

قال: " إنكم لا تفهمون، وإني لَأرى وأحس، ما لا ترون أو تحسون "

فقالوا: " وكيف ذاك؟! إنك حمار، ونحن مثلك، أنت منا ونحن منك؟! "

قال: " لستُ منكم ولستم مني في شيء، سوى ما تنظرونه من تشابه الصور، وهي محل سخريتكم مني وعليَّ! "

فسكتوا، وأتم كلامه: " إنكم لا تفهمون، غير أكلكم وشربكم ومنامكم، وكل هذا لا يعني عندي شيئاً، يستحق أن نعيش ونشغل تفكيرنا من أجله، ولا أجد فيه، بل لا أشعر معه، بأية لذة، حتى وإن أخذناها باعتباراتها المادية، فهي وجيزة، وزائلة، تاركة ورائها تبعات مزعجة، أكثر الأحيان، أنا لا أنظر إلى الآخرين من حيث هم فقط، بل أنظر إلى الآخرين من حيث أنا أولاً، وأسامحهم على ما هم عليه ما استطعت، أتفهمون ما أقول!؟"

صفنت الحمير، ووقفت آذانها، وهي لا تفقه شيئاً مما قال! ....

تركهم الحمار الأسود، وذهب لينام، ويأخذ قسطاً من الراحة ... لكنَّه لم يستطع ذلك، حيث أخذ يفكر بكلام صاحب الإسطبل، وكيف أنه توعد صاحبه، بأن يحاسبه يوم غدٍ، عن أجر مبيته، ومن أين سيأتي صاحبه بالمال، فبدأ يلوم نفسه، وأنه لو لم يخرج، لكان أفضل، لعلَّ صاحب الإسطبل، يعطف عليه، إن علم بأن صاحبه مريض ولم يأت ... دارت هذه الإشكالات في رأسه وغيرها .. حتى قال:

" إن التفكير في هذه الأمور لا يفيد في شيء ...لأفكر كيف أنقذ صاحبي يوم غدٍ من هذا الموقف؟ هذا ما يجب أن أجد لهُ حلاً "

بعد تفكيرٍ طويل، وتقلب وجهه بين الأفكار والهواجس، قال:

" نعم وجدتها، سأخرج مبكراً كما فعلت اليوم، قبل أن يأت هو، فأنتظره خارج الإسطبل "

إتخذ قراره هذا، ودخل في نومٍ عميق .....

صاح الديك مؤذناً بداية يومٍ جديد، جاء صاحب الإسطبل وقدم الغذاء، ثم ربط كل حمار إلى عربته، وما أن ذهب حتى خرج الحمار الأسود مسرعاً، وقضى يومه كما الأمس، والأمل يحدوهُ بأن صاحبهُ سيأتي، ولكنَّهُ لم يأت ... فتحمل سخرية الحمير ووعيد صاحب الإسطبل ...

بات ليلته الثانية، وقراره أن يفعل كما فعل في يومه السابق ... وما أن حلَّ الصباح، خرج في اليوم الثالث، وفعل كما فعل في اليوم الثاني ... ولم يأت صاحبه! ... لم يكُ يشتكي من شيء، سوى قلقه وشوقه لرؤية صاحبه ...

قضى ليلته الثالثة في سهرٍ، يتوجسُ خيفةً، حيثُ أخذت منهُ الهواجس مأخذها، ولكن أملهُ لم ينضب، ولهفتهُ لرؤية صاحبهِ زادت، وشوقهُ إليهِ أنساه كل تعب العمل، فلم ينم، حتى مطلع الفجر ...

قبل أن يأتي موعد الإيقاظ، وقبل صياح الديكة، رأى الحمارُ شخصاً يقتربُ منه ، ظنَّ أنهُ صاحب الإسطبل، لكنَّه ذُهل حينما عرف بأنه صاحبه ... فنهق نهقة أفاق لها جميع الإسطبل ... وأغرورق وجهه بدموعه الساكبات ... وركض نحو صاحبهِ يشمه ويلعقه ... جاء صاحب الإسطبل، فوقف الحمار بينه وبين صاحبه، وكأنه يتوسل إليه ... فقال صاحب الحمار:

" لا عليك، لقد تعافيت، وسأخرج مع حماري، ثم أحاسبك أخر النهار "

فخرجا سويةً .. والحمار كأنه طائر حلق في السماء ...

وصلا معمل الطابوق، ثم دخلا، ونادى صاحب المعمل صاحب الحمار، وقال له:

" إن لك عندنا أجر ثلاثة أيام "

ثم تناول مبلغاً من المال، وأعطاه لصاحب الحمار ... فحمد الله وشكره وقال:

" يالَ عطف وإحسان هذا الرجل"

ثم قص ذلك لأصحابه، فقالوا له:

" بل إحمد الله وإشكره، على رزقه لك بهذا الحمار"

وحكوا له حكاية الأيام الثلاثة ... فأحتضن حماره وقال:

" من اليوم ستذهب معي إلى بيتي، وستحظى برعايتي الخاصة "

ذهب الحمار وصاحبه إلى الأسطبل، فحاسب صاحب الأسطبل وأعطاه أجره، ثم طفقا يركضان إلى البيت، حتى إذا وصلا، تم وضع الحمار في حجرة جميلة، وجائوا له بعشاء جيد، ثم شرعوا بغسله وتنظيفه ... ثم قاموا صباحاً، بتسريحِ شعره الأسود، وعمل ظفيرةٍ في رأسهِ، وذيله، وإلباسهِ لباساً جديداً ...
لكنَّ كل هذا لم يك يشكل له شيئاً، مقابل رؤيته صاحبه، ومرافقته له طول الوقت .....

في اليوم التالي، جاء الحمار الأسود وصاحبه، وقد لبس لباسه الجديد وتزين به، وتغيرت نظرة وكلام، جميع أصحاب الحمير عليه ... بالمقابل حسدته جميع الحمير، التي لم تفهمه، ولن تفهمه أبداً، حيث قالت هذه المرة أيضاً:
" يا ليت لنا حظاً مثلك! "

القصة الثانية (الفرس الاصيل)

****

يُحكى، أنهُ كان يا ما كان، في قريب الزمان، قصةٌ من قصص الحيوان، حيث إنبرى الانسان، لأسرِ مكونات الطبيعة، وتسخيرها لتلبيةِ رغباتهِ، المتواصلة وغير المنتهية، وهي لا تنفك أن تكون أمامه جاثية، ولرغباته ملبية، فلا حول ولا قوة لها، في هذه الحياة الدنية الفانية .....

رجلٌ، يملكُ إسطبلاً لتربية الحمير، وبيعها وشرائها وإستإجارها، وكان يمتلك عرباتٍ أيضاً، فيستإجر العربةَ والحمارَ معاً، من أول الصباح إلى المساء، والأجرُ على قدرِ المشقة .....

ذات يومٍ، جيئ له بفرس، حيث يريد صاحبها بيعها، فقال له:

" ماذا كانت تفعل عندك؟ وما هو عملها؟ "

قال مالكها:

" كانت تعين أبي في أمور الحقل، ولكن الآن وقد مات أبي، قررت أن أستقر في المدينة، حيث لا شأن لي بالزراعة، خصوصاً وأني أعيش في المدينة منذ أيام دراستي، والآن أعمل كموظف فيها، فلا حاجة لي بالحقل أو الفرس، بل أنا محتاج إلى ثمنهما "

إتفقا ... فأشترى صاحب الإسطبل الفرس، فكانت طويلة، ورشيقة، ومن الخيول الاصيلة ... فقال في نفسه:

" أُدربها على جر العربات "

بدت الفرس غير حزينةٍ على فراق صاحبها .... دخلت إلى الإسطبل، فلم تجد فيه أحداً، حيث أن الجميع خرج إلى العمل ... قدَّم لها صاحب الإسطبل الطعام والشراب ... ثم تركها وحدها داخل الاسطبل ...

عند المساء، عادت الحمير من عملها إلى إسطبلها متعبة، فأخذ كلٌ منها، مكانه داخل الاسطبل، ولم يأبه لأمر الفرس أحداً، ولو بكلمة ترحيب ... بعد برهةٍ من الوقت، جاء صاحب الإسطبل ليقدم الطعام والماء للحمير .....

بعد أن أتمت الحمير غذائها، والفرس ترقبهم من مكانها، دنى أحد تلك الحمير من الفرس، قائلاً وبكل لطف وأدب:

" مرحباً "

فأجابتهُ وبدا عليها الخوف والقلق:

" مرحباً "

" أتشعرين بالحزن على فراق صاحبك "

" لا "

" وكيف لا؟! وقد جئت لمكان جديد ومالك جديد! "

" كان مالكي القديم، يجعلني أعملُ كثيراً، ولا يريحني، ثم أنه بالرغم من تعبي وجهدي الذي أبذلهُ، لم يكُ يعطيني ما يكفي من الطعام والشراب، لقد كان بخيلاً، حريصاً يقتر على نفسه وعلينا، وأخيراً مات، فجاء ولده وقرر بيعي والحقل، فلا شأن له بالزراعة "

" لقد كان عملك متعبا وشاقاً حقاً، ولكن ألم يكُ معكِ مَنْ يُساعدك؟ "

" بلى، كان ثمة ثورٍ وبقرة، فأما البقرة، فإنها لا تعمل، لأنها حينما تضع مولوداً، يقومُ صاحبُ الحقلِ ببيعه، ويستفيد من حليبها، وأما الثور فإن مهمته حراثة الأرض، وكذلك يستإجره بعض الفلاحين ليطئ أبقارهم، فأتحملُ باقي الأعمال"

" أوه، يا لهُ من مالكٍ قاسٍ! وكيف تجدين نفسك الآن؟ "

" إني قلقة بعض الشئ، ولكن لا باس، فإني أراك مؤدباً "

لمعت عيناها خجلاً..... وأتمت حديثها قائلة:

" كذلك فأنت لطيف معي، لكن ما هي طباع باقي الحمير؟ "

" إنهم مُعقدَّون، بعض الشئ، ومنعزلون، لا يتحاورون إلا قليلاً، وإذا تحاوروا، إختلفوا، وكلٌ إستبد برأيه، لأنه ينظر إلى الأشياء من خلال تجربته الشخصية، ويحاول تعميمها وفرضها على الآخرين، ثم ينتهي الحوار بشجارٍ أو عراك، ولا يستطيع أن يقنع أيَّ منهم الآخر، وكثيراً ما أتدخل لتهدئت النفوس، وفض النزاع، وقد أحصل على بعض الركلات أحياناً "

فضحكت الفرس، والحمار ينظر إليها ولجمالها .....

قالت :" إذن لا تتدخل "

" لا أستطيع فإن الواجب يحتم عليَّ ذلك، وكذلك فان جسمي أصبح يُحب ركلاتهم "

فتبسمت الفرس، وبدا على محياها الأعجاب بشخصية الحمار وظرافته، قالت :

" لكني أخاف هذه الاشياء "

" لا تهتمي فأنا معكِ، وسوف أحميكِ، ولن أدع أحداً يصل إليكِ "

فشكرتهُ، وإستأذن لينام، فهو متعبٌ من جرآء عمله، طوال ساعات النهار....

عند حلول الفجر، وصياح الديكة، دخل صاحب الإسطبل ورَنَّ جرساً كان يحمله بيده، فنهضت الحمير، وإنتبهت الفرس، وكلٌ أخذ مكانه المعتاد ... قدَّم لهم صاحب الاسطبل الطعام والماء، ثم شرع يربطهم، الواحد تلو الآخر إلى عربته .... جاء السائقون، وبدأوا بسحبِ العربات، ولكنَّ الحمار المؤدب توجه نحو الفرس، مودعاً لها، وبهمس رقيق :

" أراك لاحقاً "

فأجابته : " أتمنى ذلك "

فرح الحمار المؤدب، وسُرَّ كثيراً من جوابها، ثم ذهب إلى عمله وفي داخلهِ شعورٌ غريب .....

بعد مضي ساعات، عاد صاحب الإسطبل ومعه عربة جديدة لنقل الركاب، ومعهُ أيضاً رجلٌ يُعينه في جر العربة، يبدو أنه إتفق معهُ على إستإجار العربة بعد ربطها إلى الفرس، حيث أن

هذا الرجل، كان يعمل في نقل السواح وتجوالهم من مكان إلى آخر من الأماكن الأثرية والسياحية ..... قاما بربط الفرس إلى العربة، فبدت أليفة وغير غاضبة، بل هي فرحة، تمشي مرحة، فاستمروا بتدريبها طيلة ساعات النهار .....

عادت الفرسُ إلى الإسطبل قبيل عودة الحمير من عملها، وعندما بدأت الحمير في الدخول إلى الإسطبل، كانت الفرسُ تنظرُ إلى الباب، وكأنها ترقبُ أحداً، حتى دخل الحمار المؤدب، فأحست بفرحٍ شديد... دنت منه وبادرته بالسؤال :

" كيف أنت؟ وكيف كان يومك؟ "

" كان يوماً جيداً، وكيف كان يومكِ أنتِ؟ "

فبدئت تحكي له، ما جرى لها من تدريبات مع العربةِ الجديدة، وهي مبتهجة مسرورة، بان على محياها وعيونها ذلك، وهو مبتهج ومسرور أيضا .... وفجأة، وبعدُ لم تتم حديثها، سكتت عن الكلام، فقد إنتبهت أنه ترك عشائه، الذي قُدم له، وظل يستمعُ إليها، فاعتذرت له، وطلبت منه أن يُتم عشاءه، وإنصرفت، وهي خجولة مما فعلت، ومحتارة في نفس الوقت .....

أتم الحمارُ عشاءه، وإنسحب إليها، فأوهمته بأنها نائمة، ولم يأتهِ النعاسُ تلك الليلة، وكانت ليلة هادئة .... فأخذ يتساءل في نفسه:

" ماذا جرى ليَّ؟ ولماذا هذا الاهتمام الكبير بها؟ ألأنها ما زالت غريبةً ووحيدة؟! إذن فما بال قلبي وبدني رجفا عندما إستقبلتني؟! وما بالي لا أحس بتعبي الذي ولى عني حين رؤيتها؟! حتى عشائي الذي نسيته ونسيت من حولي؟! إيه، مالذي يجري؟! "

كان الذي يجول في خاطره، من اسئلةٍ وحيرة، يجولُ في خاطر الفرس الأصيل أيضاً .....

مرت ساعات الليل، وإنقشع ظلامه، وأنهى هدوؤه، صياح الديكة، ورن جرس الإستعدادِ ليوم جديد، نهضت الحمير، وأتمت فطورها، وتم ربطها إلى عرباتها .... حضر سائقوا عربات الحمير إلى الاسطبل، لإصطحابها إلى عملها اليومي المعتاد، وبقيت الفرسُ في مكانها، تنظرُ إلى الحمار المؤدب، الذي ظلَّ محتاراً كما قضى ليلته، والذي لم ياتِ ليودعها، كما فعل في الأمس ....

حضر الرجل، سائق العربة الجديدة، وقام بالمسح على رقبة الفرس وملاطفتها، ثم أخذها ليربطها إلى عربتها، فلم يجد صعوبة في ذلك، فقد كانت لطيفةً ومنقادةً وهو يخاطبها :

" ستكونين مرتاحة بالعمل معي، فأنا أُحبُ الخيل، وخبير في التعامل معها "

خرجا إلى الشارع، فمر بها إلى الحَدَّاد، فصنع لها حدوات ووضعها في حوافرها، ثم أخذها إلى دكانٍ آخر فزينها، وسرَّح شعرها، فبدت أجمل مما كانت، وهي جميلةٌ بغير ذلك .....

مشت الفرس وسائق العربة، وكأنهما إمتزجا كتحفةٍ فنيةٍ، صاغها القدر من مكونات الطبيعة الصافية، دون إذنٍ من السيد الحاكم، المتسلط المحتكر..... وما أن وقفت العربة في مكانها المخصص، حتى جاء بعض السائحين لإستإجارها، وذهب الجميع في جولة ممتعة ...

عند الظهيرة، طلب السواحُ التوقف لتناول وجبة الغداء، فإقترح عليهم سائق العربةِ أن يأخذهم إلى مكانٍ جميلٍ يعرفه، فيجلسوا للراحة فيه، فوافق الجميع، وعند وصولهم الى المكان، دخل الجميع، وبقي السائق (اللطيف على ما يبدو) عند الفرس، ففك رباطها، وقدَّم لها الطعام والماء، ثم إلتحق بالسواح ودخل وراءهم .....

أخذت الفرس تلتفت يميناً وشمالاً، تنظرُ مِنْ حولها إلى البنايات الأثارية الجميلة، وكذلك إلى البنايات العالية الحديثة، فجاء في خاطرها الحمار المؤدب، الذي أحست معه بشئ جديد، وفجأة شدَّ إنتباهها، وشغلها عما كانت فيه، صوتٌ هائل، وصفيرٌ قوي قد أرعبها، خرج السواح للنظرِ وإلتقاط بعض الصور إلى ذلك الشئ، الذي كان قطاراً كبيراً يقوم بنقل البضائع، على سكة من الحديد لا يحيد عنها .....

إنتهت الإستراحةُ، وركب السواحُ العربةَ، فذهب الجميع في جولة أُخرى ...

قبل حلول المساء، أوصل السائق السواح إلى نُزلِهم، ثم عاد بالفرس والعربةِ إلى الإسطبلِ قبل عودة الحمير... فكَّ رباط الفرس وودعها ..... جاء صاحبُ الإسطبل إلى الفرسِ ليأخذها إلى مكانها، لكنَّ الفرس ذهبت من تلقاء نفسها إلى مكانها في الإسطبل، وهو ينظر إليها قائلاً:

" تعساً لمن فرَّط بكِ! كم أنتِ ذكيةٌ وجميلةٌ ومطيعة "

عادت الحمير ودخلت الاسطبل، والفرس ترقب دخولهم، واحداً واحدا، وتمد رقبتها لتنظر إليهم، حتى إذا رأت الحمار المؤدب لوت عنقها، وإستقرت في مكانها ... دخل الحمار المؤدب إلى الإسطبل وأخذ مكانه، وجئ لهم بعشاءهم، وبعد أن أتموا العشاء، ذهب الحمار يسحب نفسه، رويداً رويدا، نحو الفرس، ولا يدري ماذا يقول، فبادرها وبدون أيةِ مقدماتٍ قائلاً:

" أسف ، لا ادري ....."

وقبل أن يُتم كلامه، قاطعته قائلةً:

" لا عليك، يكفي أنك أمامي الآن "

فبدا مسروراً جداً، وقال:

" إذن فكيف كان يومك الأول في العمل؟ "

" كان جيداً، مسلياً وممتعاً في نفس الوقت، ولم أشعر بالتعب أبداً، فلقد كان السائقُ لطيفاً جداً معي "

قال وهو غارقٌ في النظرِ إلى وجهها:

" بل أنتِ لطيفة وجميلة، تأسرين العقلَ والقلبَ بشكلك وطباعك "

" أشكرك، هذا ظرفٌ منك "

حاولت ان تغير مجرى الحديث قائلةً:

" لكني أراك متشائما بعض الشئ "

" وكيف ذاك؟ "

" وكأنك لا تثق بلطافة سائق العربة معي؟! "

" إني أعلم ما لا تعلمين، فلقد رأيتُ منهم كثيراً، وأتمنى أن يقيكِ الله شرهم ومكرهم، فهم أنانيون، وعند مجئ مصلحة من مصالحهم، لا يأبهون بشئ، وينسون كل شئ، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكنها تعمى القلوب التي في الصدور، إيه... لا عليكِ، لقد تأخر الوقت، إذهبي للنوم لترتاحي، فغداً ينتظرنا يوم عمل آخر، والليل قارب على الانتهاء ..... أتمنى لكِ أحلاماً سعيدة، تصبحين على خيرٍ إن شاء الله "

" أنت لطيفٌ جداً، أشكرك .. تصبح على خير "

جاء الصباح، والديك صاح، ورن الجرس، معلنا عن بدء يوم جديد، نهض الحمار وهو سعيد، فإقترب من الفرسِ ووقف إلى جانبها، وهي مبتسمة خجولة، لكنها فرحت بوقوفه جنبها على تلك الحالة، وفي تلك الاثناء إنتبه لهما باقي الحمير، ولم يكونا يشعرا بوجود مَنْ حولهما، فسلم أحدهما على الآخر، وبدءا بالأكل والشرب، وبعدما أتما ذلك، ذهب كلٌّ منهما إلى عربته، ينتظران مَنْ يربطهما، والحمير تنظرُ لهما بغرابة وإستغراب .... جاء السائقان، وكلٌّ سحب عربته، فتوادعا، وذهب كلٌّ منهما في طريقه .....

إستاجر بعض السواح العربة والفرس، وذهبوا في جولة طويلة وجميلة، ثم إنعطف بهم سائق العربة إلى مكان الإستراحة الذي يرتاده، وفي ذلك المكان إلتقى بصديقٍ له، فسأل الصديقُ سائقَ العربةِ:

" رأيتك دخلت مع السواح؟ "

" نعم، فقد إستاجرت عربة وفرس، وأنا أتنقل بالسواح حيث يريدون "

" فمِنْ أين إستاجرت العربة؟ "

" من إسطبل الحمير، وأنت ماذا تعمل الآن؟ "

" كان لي بغلاً، أنقل على ظهره البضائع، إلى القرى الجبلية، ولكنه سقط في الوادي ومات، والأصح أنه رمى بنفسه وإنتحر، ليهرب من جوري وظلمي، ولكن ما ذنبي فهو بغل لا يستطيع العيش كسائر الخلق ... والآن أنتظرُ من يبيعني بغلاً أو يؤجره لي، ولم أجد أحداً إلى الآن " قال سائق العربة(وكأن شيطاناً حل بداخله): إنتظر، لقد خطرت لي فكرة الآن، لو يوافقني عليها صاحب الإسطبل "

" وما هي؟ أدركني بها! "

" أن يختار حماراً قوياً فيزوجه هذه الفرس، أعني الفرس التي تقود العربة، فهي فرس قوية ونشيطة "

" فكرة صائبة "

" إذن تعال هذه الليلة إلى الإسطبل، ولنفاتح صاحب الإسطبل بذلك" .... وإتفقا ...

إنتهت الإستراحة، وتمت إعادة السواح إلى نُزلهم، وعادت الفرس تجر عربتها وسائقها الذي ظنته لطيفا ويملك قلب ملاك! ... وصلوا إلى الإسطبل وفك رباطها، فذهبت إلى مكانها، وقدَّم لها عشاءها ...

قال السائق لصاحب الإسطبل:

" سأعود لأراك لاحقاً، في الليل ومعي صديق، فإن لنا معك أمراً، سوف تربح منه كثيراً من المال "

فرح صاحب الإسطبل، وقال وهو يمسح يديه الواحدة في الأُخرى:

" أربح مالاً؟ على بركة الله، أهلاً بك وبصديقك تعالا متى ما شئتما "

رجعت الحمير إلى إسطبلها، وكان بعضها قد تحدث مع الحمار المؤدب، عن مدى علاقته بالفرس، وإلى أيِّ حدٍ هي، فكان مما قال لهم:

" لا ادري، لكني أرتاح عند الحديث معها، وأظنها كذلك "

فقالوا له:

"لا بأس عليكما إن كان كما تقول، لكن لا تنس بأنك حمار وهي فرس "

" وما الضير في ذلك؟ "

" الضير ان تؤول علاقتكما إلى ما لا تحمد عقباه، لأن الإنسان يستغلنا أبشع إستغلال "

عندما دخل الحمار في الإسطبل، كان حديث الحمير ما زال يدور في راسه، وبينما هو كذلك، فاجئته الفرس، فقد وجدها أمامه، وجهاً لوجه، تسلم عليه:

" كيف حالك؟ "

فتبسم وردَّ عليها:

" بخير وأنت؟ "

" ما دُمت بخيرٍ فأنا كذلك "

" هل تناولتي عشاءك؟ "

" نعم، لقد عدتُ مبكرةً "

" إذن، فاسمحي لي أن أتناول عشائي أيضاً "

فتبسمت، ودنت بوجهها من وجهه، وعيونها من عيونه، وقالت:

" ألم تُشبعك رؤيتي؟ "

فتبسم وقال:

" دعك من هذا الآن، سأعود لنتكلم بذلك "

تناول الحمار عشاءه، وهو ما زال يفكر بكلام الحمير، وبعد أن أتم عشاءه، خرج إلى باحة الإسطبل، وفي تلك الأثناء، رأى الرجلين(سائق العربة وصديقه)، وقد جاءا، فاستقبلهما صاحب الإسطبل، وعرضا عليه فكرتهما، وقالا:

" اذا قبلت، فخير البر عاجله، ولنتم الأمر الليلة، ولنختر حماراً قوياً "

حينما سمع الحمار بالأمر، ركض إلى داخل الإسطبل، وإفتعل شجاراً، وأخذ يضرب الحمير، برجله وبرأسه، فعمت الفوضى المكان، فأسرع صاحب الإسطبل إليه، يعقبه الرجلان، وهم به

فضربه على رأسه، فشجه، وأخذ الدم يسيل على وجه الحمار، وأراد أن يردفه بالثانية، ولكنَّ الرجلان أمسكا به وقالا له:

" ماذا تفعل؟! هذا ما كنا نبحث عنه، الحمار القوي، ألا تراه؟ إن حجمه كحجم الفرس، وطوله كطولها تقريباً، كما أن لونه، أبيض وجميل، هذا ما نبغ "

لما سمع الحمار كلامهما، صار هادئاً، وسكت عن النهيق، وعرف أن الأختيار قد وقع عليه.

جاءت الفرس مسرعة نحو الحمار، وهي تحاول مسح الدم عن وجهه، وتستفهم منه، فقال لها:

" لا تخافي وأطمأني، فأنا كما وعدتك "

لم تفهم الفرس ماذا كان يقصد الحمار بقوله هذا.....

أخرج الرجلان صاحب الإسطبل وقالا له:

" أخرج الحمار وداوه وهيئه للزواج ونحن سنهيئ الفرس "

دخل صاحب الإسطبل وإصطحب الحمار، وعالجه وبدا الحمار هادئاً وفرحاً .... جاء الرجلان وأخذا الفرس إلى غرفةٍ لوحدها، ثم حفرا لها أربعة حفرٍ لتنزل أقدامها الأربعة فيها، ليتم تثبيتها، فلا تستطيع حراكاً، ولا مقاومةً، وكذلك ليتمكن الحمار من أن يطأها بسهولة ويسر، وبعد أن فعلا ذلك، قاما بتهيئتها ....

جيئ بالحمار، وقد تهئ أيضاً، فبدأت مراسيم الزفاف، وكانا قد جُن جنونهما ... ووطئ الحمارُ الفرسَ فوقعت على الأرضِ مغشياً عليها، وبعد ساعةٍ من الزمن أفاقت الفرس، وإستوعبت الذي حدث، ووجدت الحمار عندها، يداعبها ويلاطفها، ولكنها شرعت بالصهيل والبكاء، فقال الحمار:

" لما هذا البكاء؟ "

فاجابته وهي تبكي وتصرخ :

" ألا تدري لما أبكي؟ ألا تدري ماذا فعلت؟ كيف فعلت ذلك؟! ولماذا؟! "

" إنما كان الأمر مبيتاً، فقد خطط له سائقك، الذي قلتِ عنه أنه لطيف! لقد مكر بك هو وصديقه، إذ جاءا إلى صاحب الإسطبل، وعرضا عليه الأمر، وفرح بذلك، وقد قلتُ لكِ مِنْ قَبلُ أن هؤلاء لا أمان لهم ... لقد كنت في باحة الأسطبل وسمعت حديثهما، وما كان شجاري هذا إلا لأفوز بك! "

وبنبرة حزنٍ وعتاب، سألتهُ:

" كيف رضيت أن يُفعل بي هذا؟ ولما لم تخبرني بالأمر؟ "

" لم يكن هناك متسع من الوقت، وكذلك فأنا كنت أظنُ أنك تحبينني؟! "

وبدا عليه الإستغراب ، فقال:

" أولم يكن ظني في محله؟! "

فأجابتهُ:

" ليس هذا ما أقول، فأنا أُحبك أيضاً، ولكن أتدري ماذا سننجب غدا؟ "

" ماذا؟ "

" بغلاً، للكد والنكد، لا هو لي ولا هو لك، ولا يستطيع أن يُكونَّ أُسرة ولا ينجب أولاداً، إنه لا مستقبل له "

" إذن فما العمل الآن؟ "

قالت وهو تستعيد قوتها:

" يجب أن لا يولد "

" فكيف ذاك؟ "

قالت حيث بدأت بالهدوء:

" ساخبرك فيما بعد، سأمكر بهم كما مكروا بي، ولن اتركهم يفرحوا بعملهم هذا أبدا "

" المهم عندي أن لا أخسركِ بعد أن حصل ما كنت أظنه مستحيلاً، فإنك لا تعلمين كم أُحبكِ "

" بل أعلم وأنا أُحبك أيضاً "

.... تلاصقا وناما جنباً إلى جنب .....

أصبح صباح اليوم التالي، ونهض الحمار، الذي لم يعد بجرحه يبالي، وحنى على زوجه الغالي، يوقضها بحنين ومسح الجبين .....

دخل صاحب الإسطبل، وجلب فطور العروسين، وغادر المكان، ولم يات أحد لأخذ الحمار أو الفرس إلى العمل، فبقيا معا، داخل الإسطبل وفي باحته، يقضيان وقتاً ممتعا ..... لكنَّ الاوقات الجميلة تنقضي بسرعة فائقة ...

توالت الأيام، والعروسان يلعبان، ويتبادلان أحلى الكلام ... أما في العمل، كان الحمارُ يحاولُ أن يكون قريباً منها، لعلها تحتاجُ إلى شئ، وبعد نهاية ساعات العمل، جعل لهما صاحب الإسطبلِ مكاناً خاصاً، وكان الحمار لا يفارق الفرس ليلاً أبداً .....

بعد مضي شهور، بان الحمل على الفرس، وبدأت بطنها تكبر، وذات ليلة، قالت الفرس للحمار:

" الآن حان وقت التخلص من المولود "

" وكيف ذلك "

" أرفسني، أرفسني رفسةً قويةً على بطني "

فقال مستنكراً قولها:

" أنا!؟ لن أفعل ذلك البتة! ... أنا؟! لا أستطيع أن أُذيكِ أبداً! كيف تطلبين مني أن أفعل هذا؟!"

فقالت له ودموعها ساكبةٌ وهي تتوسل إليه:

" أرجوك أن تفعل، وإن كُنتَ تخافُ أذيتي، فإنها أقل بكثيرٍ من أذيتي وأنا ألدُ بغلاً، أرجوك "

إستمرت بالتوسل إليه ... لكنَّ الحمار أنكر عليها هذا الفعل، وأصر على رأيه، ولما يأست منه، قالت:

" تصبح على خير" ... وخلدت إلى النوم .....

في الصباح الباكر، إستيقظ الحمار الحائر، وإستيقضت الفرس، عند سماع الجرس، وبعد إتمام وجبة الفطور، قالت الفرس للحمار:

" أرجو أن تسامحني "

فبدا الحمارُ مسروراً، وظن أنها تراجعت عن كلامها، فقال لها:

" لا عليكِ، والآن إلى اللقاء، أراك لاحقاً "

فهزت الفرس رأسها مومئةً، وقالت بصوت خافت:

" وداعاً حبيبي "

لم يسمعها الحمار وغادر مع سائقه .....

خرجت الفرس مع سائقها، الذي شزرته بعينها، إحتقاراً على دنائة نفسه وخستها، ومشت معه إلى حيث عملهما اليومي ...

عند الظهيرة ... في وقت الاستراحة ... في نفس المكان، وكعادته فك رباط الفرسِ سائقها، ودخل مع السواح إلى المقهى ... جاء القطار وعلا صفيره، فركضت الفرس متجهةً إلى سكة الحديد، وما أن دنى القطارُ منها، حتى رمت بنفسها أمامه، فلطمها، ورمى بها بعيداً، فسقطت كجثةٍ هامدة، والدمُ ينزفُ من كل مكان في جسمها...

ركض السائق والسواح نحو الحادث، وتجمهر الناس حول الفرس الأصيل، ينظرون اليها، يتأسفون ولا يدرون ماذا يفعلون ....

رأى الحمار وسائقه تجمهر الناس، فهرعا إلى مكان الحادث، فرأى الحمار زوجته، والدماء تسيل منها، وقد ماتت، فرمى بنفسه عليها، وأخذ يلعقها ويُقلبها، وتذكر ما قالته:

" سامحني " ...

ثم قام فجأةً، ونهق نهقةً ضج لها الحاضرون، وركض نحو جدار قريبٍ، فضرب رأسه بالجدار فإنفلق، وسالت الدماء منه ... ثم عاد إلى زوجته يترنح، وسقط رأسهُ عند رأسها، فأختلطت دمائهما، وفارق الدنيا ميتا ...

القصة الثالثة (بين الغابةِ والإسطبل)

****

يُحكى، أنه كان ياما كان، في قريب الزمان، حيث إحدى الغابات، المليئة بأنواع الحيوانات، كان هناك قطعان من الحمير الوحشية، وليس أفقر منها في البرية، إنما سميت وحشية لإنها لا ترغب في العيش مع الإنسان، أو تحت سيطرة أيَّ كان، لا لإنها مفترسة، بل مغلوبة على أمرها، في كل زمان ومكان ...

كانت هذه الحمير تجوب أطراف الغابة، لا يحكمها قانون، ولا عُرف مسنون، فتتجهُ لتلبيةِ رغباتها، التي لا تنتهي، فهي تأكل ما تشاء، وتشرب ما تشاء، وتلعب وتمرح حيث تشاء، وتنام وترتاح متى تشاء، فلا عمل لها، ولا هي واقعة تحت سيطرة السيد الحاكم ... بل تحيى حياة اليقظان الحالم .....

تسيرُ هذه الحمير، على شكل قطعان مجتمعة، فهي تحب وتتزوج وتتكاثر، مكونةً مجتمعها الخاص، القائم على الحرية الفردية، ولذا فإن الروابط الأُسرية عندها مفككة، ولكنَّها تسيرُ مجتمعة، لسبب معين، وهو الدفاع عن نفسها، فيما إذا داهمتها الذئاب، أو الضباع، أو الحيوانات المفترسة الاخرى ...

لكن الواقع، وما يحصلُ فعلاً، يكشف زيف ذلك، فإن ما يحدث أثناء هجوم تلك الحيوانات المفترسة على قطعان الحمير، إن كل فرد من الحمير يدافع عن نفسه فقط، وأحيانا أُسرته، ولذلك فان القاصي منها، الذي يقع في قبضة الحيوانات المفترسة، لا يجد من يدافع عنه، بل يرى القطيع وهو يهرب، تاركاً إياه يلاقي مصيره المحتوم، إلا في أحيانٍ نادرة، فقد تحاول الأُم الدفاع عن وليدها، ولكنها لا تلبث أن تولي هاربة مع القطيع ...

لم يكن ثمة شيئٍ يُعكر صفو حياة الحمير هذه، إلا الحيوانات المفترسة التي تهاجمها في أيِّ زمان ومكان، ولذلك فإن الحمير لا تذوق طعم الأمان والراحة أبداً .....

ذات يوم ... إبتهجت إحدى تلك الحمير، بوضعها حماراً جميلاً، ذو خطوط متناسقة، فأخذت أُمه تلعقه، وتمسح وجهه، وتحاول إرضاعه، مع تشجيعه على المشي، وبعد جهد ومثابرة، تمكن الحمار من المشي، فسُرت أُمه بذلك، لكنَّها بقدر ما فرحت بمجيئه إلى الدنيا، كانت ترقبه خوفا عليه من الإفتراس ...

كَبُرَ الحمار، ورأى بعينيه، ما تفعله الحيوانات المفترسة، بأفراد قطيعه، وكان يقول في نفسه:

" هل يمكن التخلص من هذه الحيوانات؟!

وهل يوجد مكان فيه أمان منها فنلتجئ إليه؟!

أم سياتي يوم ويكون مصيري كأمثالي، طعام للذئاب وللحيوانات المفترسة؟! "

بالرغم مما كان يجول في خاطره من هذه التساؤلات، لقد كان الحمار يتجول قريباً من أُمهِ، يلعبُ ويلهو، يأكل ويشرب، ويسابق أقرانه في القطيع، فقد كان مرحاً يحبُ الحياة، وذات مرة،

حينما كان يعيش تلك اللحظات الجميلة، سمع صوتاً غريباً، وحركةً تثيرُ غباراً، ورأى الحيوانات تركض هاربةً، فركض حيث رأى أُمه تركض .... قالت الأُم:

" أركض ولا تلتفت ورائك، وأدخل وسط القطيع "

فقال لها:

" ولكني لا أرى خلفنا أيةَ حيوانات مفترسة "

" إنهُ خلقٌ آخر، يأتي بين الفينة والآخرى، فيرمي أحدنا بشئ، فيسقط على الأرض، ثم يؤتون إليه ويأخذونه في عرباتهم، ولا نعلمُ ماذا يفعلون به، أو إلى أين يأخذوه "

" وكيف شكلهم؟ ومن أين يأتون؟ ولماذا لا تفترسهم المفترسات؟ ولماذا .....؟ "

قاطعته الأُم قائلة:

" كف عن أسئلتك هذه، وأركض لقد تأخرنا عن القطيع "

ما أن أكملت جملتها، حتى سقط إبنها على الارض، جثة هامدة، فإقتربت منه العربات، ولم تستطع الأُم فعل شيئٍ، سوى الهرب ...

إستفاق الحمار من غيبوبته، وهو لا يدري كم قضى في النوم مدته، وبدأ يُكلم نفسه:

" أين أنا؟! أين أصحابي؟! لماذا لا أستطيع الوقوف والنظر بوضوح؟! "

كان الحمار ما يزال يعاني من أثر المخدر، الذي أصابهُ من قِبل الصيادين، الذين جلبوه إلى إحدى الغابات الإصطناعية(المحميات) ....

في تلك الأثناء، كان ثمة حمار أبيض جميل، ينظر إلى الحمار الوحشي عن كثب، وبإستغراب، فهو يرى الخطوط التي لم يرها من قبل، قال الوحشي:

" من أنت؟ ولماذا تنظر إليَّ هكذا؟ وأين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ "

فأجابه الحمار الأبيض:

" جيئ بك ليلة البارحة إلى هنا "

" أين؟ هنا، أين؟ "

" قبل أن أُجيبك، يجب أن تقول لي من أنت؟ وأين كنت؟ "

فقص عليه الحمار الوحشي قصته الى حين إصطياده ....

ضحك الأبيض وقال:

" سبحان الله "

" ما الذي أضحكك؟ وما معنى قولك سبحان الله؟ "

" الله سبحانه وتعالى، خالقي وخالقك، وخالق هذا الذي إصطادك، ورازقنا، واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، يُدبرُ الأمر، وهو على كل شئ قدير "

" من أين تعلمت هذا؟ "

" من هذا المخلوق العجيب الذي إصطادك! فلقد قضيت عمري معه، وتعلمت منه كثيراً، منها أمور الدين "

" دين! ما معنى الدين؟! "

" إن لهم أنبياء، قد جاءوا لهم بكتبٍ مقدسةٍ فيها كلام الله، ولكنهم نبذوها وراء ظهورهم، فما هي إلا حبرٌ على ورق! فقد غدا الإنسانُ يرى من نفسه إلها! وإن لم يصرح بذلك، فأباح لنفسه كل شيئ، وتسلط على كل شئ، فهئنذا الذي أقفُ أمامك الآن، لقد إستعبد قوميَّ الإنسانُ منذ عصور خلت، وما زال يستعبدنا، ولكن بأساليب مختلفة "

" كيف؟ "

" كيفما تغيرت حياته وإستلزم أمره، لكنه مع ذلك وفرَّ لنا الغذاء والأمان، إلا منه، فيا صاحبي أنت اليوم هنا، في أمان من الحيوانات المفترسة، ومن أخطار الطبيعة الأُخرى، فهذا المكان هو غابة إصطناعية، أو يسمى "محمية"، وهو مركز أبحاث أيضاً، حيث نكون فيه كأدوات دراسية علمية لهذا الكائن، وأنا مثلك كانت لي حياة، وأصحاب، ولكن حياتنا أشبه بالجحيم! "

" وكيف ذاك؟ "

" إن حياتنا عبارة عن عمل من أول النهار إلى المساء، فلا نحظى منها الا بالأكل والشرب، وحتى زواجنا يكون بإختيارهم لا بإختيارنا، وعندما رأيت ذلك، حلمت بحياة جديدة "

" تقصد مثل حياتي؟ "

" لا، فأنا لم أسمع بحياتك قط ... لكني سمعت من أُمي بهذه الغابات الإصطناعية، والأماكن السياحية، فقررت مع نفسي أن أفد إليها مع أول فرصة "

" توقف قليلاً... إن أكثر من نصف كلامك لم أفهمه "

" صبرك عليَّ، وستفهم كل شيئ، فإن لدينا كثيراً من الوقت نقضيه في الحديث، وسأُفهمك بكل مفردةٍ قلتها "

" إذن أكمل "

" جاءت الفرصة أخيراً، حين حضرت لجنة إلى الإسطبل أعني المكان الذي أعيش فيهِ مع زملائي، فأظهرت لهم نفسي كما يرغبون، على ما ذكرت لي أُمي، وقد ساهم في ذلك لوني الأبيض وجسمي الجميل والقوي، فتم إختياري، فودعت أصحابي، وجئتُ إلى هنا أبحثُ عن حريتي وسعادتي "

" أنا لستُ مثلك، فأنا لم آتِ إلى هنا بإرادتي، ولذا فأنا الآن مسجون، وقد فقدت حريتي! "

" نعم قد تكون جئت بغير إرادتك، ولكن من إمتيازات هذا المكان عن وطنك، أنه وفرَّ لك الأمان الذي كنت تبحث عنه، وكذلك المعيشة الجيدة، وكثيراً من الأمورِ الجميلةِ التي سوف تراها، ولا أُخفيكَ سراً، فأنا مرتاحٌ جداً، حتى المختبرات فهي لا تزعجني، فقد كنا نتعرض لأكثر منها جرماً، ولكن ما أتمناه فعلاً، هو أن يتحول وطني السابق (الإسطبل) كهذا المكان، ونجد فيه مَنْ يحترمنا، ويعطينا حقنا، فينعم إخواني في الإسطبل بما أنعم به أنا "

" لكن هذا المكان ،أيضا يشوبه بعض الرعب؟ "

" نعم، إنك تتحدث بفطرتك، أنت تبحث عن الراحة التامة، والسلامة الكاملة، ولكن يا صاحبي لا راحة في الدنيا "

" فأين إذن؟ وكيف أجدها؟ "

" أما في الدنيا فصعب منالها، وأما في الآخرة فعليك بالصبر؟ "

" وما الآخرة ؟ وكيف أذهب إليها؟ "

" بعد الموت "

" ماذا؟! "

" يوجد عالم آخر بعد الموت، نعود به إلى الله، خالقنا كما قلت لك، فيُدخل الصالحين الجنة التي لا شر ولا سوء فيها، ويزج بالأشرار السيئين إلى العذاب، فيرون نتيجة أعمالهم "

" أنا مشتاق إلى ذلك العالم، ولذلك فسوف أقتل نفسي "

" ولكن الله حرَّم ذلك، وكما قلتُ لك، عليك بالصبر والعمل الصالح "

" فما العمل الصالح؟! "

" أن تتعلم مما تشاهده هنا، كذلك وتتعلم لغة هذا الكائن، وحيلهِ وأفكاره، فتميز بين الخبيث منها، والطيب الجيد، ثم إذا عُدت إلى وطنك، عملت على جعله كما ترى، وأكثر برفع الظلمِ ما إستطعت، ولن تكون هناك مختبرات تزعجك، فهو عالمك، فأقمه على الحق "

" لقد خففت عني غربتي، قل لي: هل ستعودُ أنت إلى وطنك، وتفعل مثل الذي قلت لي "

" إن شاء الله، ولكنه أمرٌ صعب، صعب جداً "

" لماذا؟! "

" عالمك واضح المعالم، فاغلبكم إن لم نقل كلكم، تعيشون بفطرتكم، ولكنَّ عالمنا مليئ بالمتناقضات الفكرية، وما أن تطرح رأياً، حتى تجدُ مَنْ يجادلك فيه، ويعارضك، ولا يعطيك مجالاً لإتمام حديثك حتى، وقد يوصلهُ العمى إلى قتلك! فكيف يترك لك فسحة التجريب!؟ ومؤخراً إنتشرت الأمراض النفسية وهي أخبثُ وألعن من الأمراض العضوية، آلاف المرات، هذا وإن المتسلطين علينا كُثر، فنحن تجارتهم الرابحة، ورزقهم الممدود، وغير المنتهي، ولذلك فأنا قابعٌ هنا، لا أدري من أين أبدأ وإلى أين أذهب، وماذا أفعل؟ "

" إذهب معي "

فضحك الابيض وقال :

" أصبحت تدعوني للضيافة عندك، وكأنك ضمنت الرجوع "

" ألم تُعلمني أن الله مُدبرُ الأمور، وأمرنا بالصبر، إذن فلماذا نشغل بالنا، فالنفعل الأشياء الصحيحة، ولنعمل صالحاً، ونترك التدبير إلى الله "

" كلامٌ جميل، ألم أقل لك إنك نظيف القلب، وفطرتك سليمة، لقد تقبلت موضوع الله ببساطة، فهل تعلم أنه في عالمنا، كم كتبوا في الله وما زالوا يكتبون؟ "

" دعنا منهم ومما كتبوا، لقد كنت أحسُ بهِ منذ زمن بعيد، ولكني أجهله، والآن أصبحتُ أعرفهُ، فالحمد له، إنهُ رزقني بصاحبٍ مثلك، أنار لي الطريق ..... لقد جعت ألا يوجدُ شئٌ نأكله "

" نعم، نعم أنا أسف، تعال سأخذك إلى الطعام "

فذهبا يركضان فرحين، فأكلا ولعبا وشربا .....

في اليوم التالي، جاء بعض المختبريين، وأخذوا الحمار الوحشي إلى أحد المختبرات وأجروا له فحوصاً، وأخذوا منه بعض العينات، حقنوه ببعض الهرمونات، ثم أعادوه إلى مكانه مع صاحبه الحمار الأبيض، ولكنه هذه المرة كان بوعيه، سأله الأبيض:

" كيف عاملوك؟! وماذا فعلوا معك؟! "

" أخذوني بلطفٍ، وأدخلوني في غرفة، ثم تنقلوا بي في عدة غرف وأضاءةٍ عالية، وسحبوا بعض دمي، وأخذوا شعراتٍ مني وأشياء أُخرى ... المهم أنهم لم يؤذوني وأعادوني معك، فالحمد والشكرُ لله "

"الحمدُ لله "

في الليلِ جاء المختبريون وأخذوا الحمار الأبيض، وقاموا بحقنه بعدة هرمونات، وتخديره ثم صبغهِ كما الحمار الوحشي، ووضعه في مكانٍ منعزلٍ لوحده وهو فاقدٌ لوعيه.

ثم ذهبوا إلى الحمار الوحشي، وقاموا بتخديره ثم طلاء شعره وجلده وإخفاء اللون الأسود منه، حتى غدا أبيضاً، ثم ذهبوا به إلى مكانٍ منعزلٍ، وهو فاقدٌ لوعيهِ.

هكذا إستمر الحال لمدةٍ معينة في المختبر، بفحص العينات المأخوذة من الحمار الوحشي، وتزويده بهرمونات معينه، وكذلك الحمار الأبيض، بعدها قرر المختبريون إرسال الحمار الأبيض إلى الغابة، والحمار الوحشي إلى الإسطبل، ومراقبة أفعالهما بعد التغيير.

كان الوقت ليلاً، عندما طلب المختبريون إرسال الحمارين وهما مخدرين كلٌ إلى مكانه، فطلب السائقان منهم الأنتظار إلى الصباح، لكنَّهم رفضوا وأصروا على ذهابهما فوراً.

إستفاق الحمار الوحشي، فوجد نفسهُ في الإسطبل، والحميرُ مجتمعة حولهُ، لكنهُ لا يعرفهم، وأخذوا يسألونهِ عن المحمية، فأخذ يصفها إليهم، ولكنهُ لا يذكرُ شيئاً قبلها، ثم جاء صاحب الإسطبل وبدأ يدربهُ على ما يقوم به زملائهِ من أعمال.

بالمقابل إستفاق الحمار الأبيض، الذي أصبح وحشياً بشكلهِ، فوجد نفسهُ في الغابة، ومن حولهِ قطيع من الحمير الوحشية، وأخذوا يسألونهُ عن المحمية، فأخذ يصفها إليهم، ولكنهُ لا يذكر شيئاً قبلها، فساعدته الحمير على النهوض والذهاب إلى واحة الماء، للأكل والشرب، ثم ذهب يركض ويلعب مع سائر القطيع.

ثلاثةُ قصص تتحدثُ عن ثلاثة أمور، مهمة في السلوك، ففي القصة الأولى، تدور الأحداث حول السلوك الناشئ عن التفكير العقلي السليم، يشاركهُ شيئ ضئيل من العاطفة، على خلاف القصة الثانية، التي كانت نشأة السلوك فيها، بشكل عاطفي جداً، إلى درجة فقدان الوعي.

تنتهي القصة الأولى، نهايةً سعيدة، وينال السلوك العقلي السليم، نصيبهُ من التوجه الصحيح والتفكير السليم، على عكس نهاية القصة الثانية، التي كانت نهايتها مأساوية، لأنها سلكت سلوكاً عاطفياً في تعاملها مع الأحداث.

أما القصة الثالثة فجائت لتوازن بين السلوكين، العقلي والعاطفي(القلبي)، بناءً على الأتجاه الثالث للتحكم في السلوك، ولذلك تركتُ نهايتها مفتوحة، ليتسنى للقارئ المضي قُدماً، في رسم النهاية التي يرجوها.

العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
+964 (0) 7703670874
+964 (0) 7902632131
مؤسسة ثائر العصامي

DESIGN